٣ ـ ابن خُـــرداذبه

للأســـتاذ كوركيس عواد

لقد تطرق غير واحد من الكتبة والمؤلفين الأقدمين إلى ذكر هذا الكتاب، والكشف عن محاسنه ومساوئه. من ذلك ما حكاه المسعودي[1] بشأنه، نورده هنا استتماماً للموضوع، وإظهاراً لرأي مؤرخ وبلدانيّ جليل، ارتآه في كتاب ثمين تتداوله الأيدي في يومنا. قال المسعودي:

« وقد ذكر عُبيْد الله بن خرداذبه، في كتابه المترجم بالمسالك والممالك، أن الطريق من موضع كذا إلى كذا مقدار كذا من المسافة، ولم يخبر من الملوك والممالك، ولا فائدة في معرفة المسافات والطريق، إذ كان ذلك من عمل الفتوح وحمال الخرائط[2] والكتب. وذكر أيضاً أن خراج طساسيج[3] العراق كذا وكذا من المال، وهذا ما ينخفض ويرتفع ويقلّ ويكثر على حسب[4] الأحوال وتصرف الأزمان، وإن جبل العَرْج[5] الذي بين مكة والمدينة متصل ببلاد الشام، إلا أن وصله بالجبل الأقرع من بلاد أنطاكية وإن ذلك متصل بجبل الآكام[6]

(١) مروج الذهب (٢ : ٧٠ ـ ٧٢ طبعة باريس). وقد اختصر الحاج خليفة هذا الرأي في كشف الظنون (٥ : ٥١١ طبعة فلوجل)

(٢) الخرائط، مفردها الخريطة: وعاء مثل الكيس، من أدم أو خرق، يشرج على ما فيه من كتب ودراهم يبعث بها إلى العمال (أنظر: تاج العروس ٤ : ١٢٨، ومفاتيح العلوم للخوارزمي (ص ٦٤ طبع ليدن)

(٣) الطساسيج، وأحدها الطسوج، بفتح الطاء ووردت بضمها: لفظة فارسية بمعنى الناحية؛ وأكثر ما تستعمل في أرض السواد من العراق. وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا (أنظر: معجم البلدان ١ : ٤١ طبعة وستنفلد، وتاج العروس ٢ : ٧٠، والألفاظ الفارسية المعربة لأدي شير ص ١١٢، والخزانة الشرقية لحبيب زيات ٢ : ١٥٥ـ١٥٦

(٤) في كشف الظنون: على حسن. وهو تحريف

(٥) تجد تفصيل ذلك في الصفحة ١٧٢ ـ ١٧٣ من المسالك والممالك

(٦) يعرف أيضاً بجبل السكام

هذا عجيب من قوله، أما تراه علم أنّ أجزاء الأرض مماسة بعضها لبعض، متصلة غير منفصلة ولا متباينة مما بين بعضها ببعض إلا أن الأرض ذات وهاد وأنجاد وحدب. على أنه أحسن كتاب في هذا المعنى » ا هـ. أو قوله الآخر[1] في هذا الكتاب:

« ومن كتبه[2] النفيسة، كتابه في المسالك والممالك، وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته، وإن تفقدته حمدته »

أو قوله الثالث[3] في هذا السفر عينه:

« ... وقد صنّف أحمد بن الطيب السرخسيّ[4]، صاحب يعقوب بن إسحاق الكندي، كتاباً حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها؛ وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني[5]، وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن احمد ابن أسد صاحب خراسان، ألّف كتاباً في صفة العالم وأخباره، وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة؛ وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه في كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وهو أعم هذه الكتب شهرة في خواص الناس وعوامهم في وقتنا هذا »

وقد أشار ابن حوقل إلى هذا الكتاب إشارة خفيفة بقوله[6]:

« ولا يقاربُ هذا التأليف عنده (عند قارئ الكتاب أو الناظر فيه. والكلام هنا على كتاب صورة الأرض) كتاب الجيهاني ولا يوافق رسم ابن خُرّاداذبه ... »

(١) مروج الذهب (١ : ١٣ طبعة باريس)

(٢) الضمير يعود إلى ابن خرداذبه

(٣) التنبيه والاشراف ص ٧٥ طبعة دي غوي، أو ص ٦٥ ـ ٦٦ طبعة مصر

(٤) لم يصل بنا نبأ شيء من هذا الكتاب

(٥) كتاب الجيهاني المرسوم أيضاً بالمسالك والممالك، من المصنفات الضائعة في وقتنا. والكتبة الأقدمين آراء وأقوال طريفة فيه، لا مجال لذكرها هنا.

(٦) كتاب صورة الأرض [المسالك والممالك] لابن حوقل. الطبعة الثانية التي نشرها كرمرز J. H. Kramers في ليدن سنة ١٩٣٨، ص ٤٥.

ولابن حوقل كلمة ثانية بشأن هذا الكتاب ، إلى القارئ نصها[1]: « وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر . وإذا الكتابان الأولان قد لزمني أن أستغفر الله من حملهما واشتغالي بهما عن ما يلزمني من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة ... » !

ومن الآراء الطريفة التي وقفنا عليها بصدد هذا الكتاب ، ماحكاه البشاري المقدسي بقوله ، وهو رأي تفرد به : « ومن مفاخر كتابنا (يعني كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الإعراض عما ذكره غيرنا ، وأوحش شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا . ألا ترى أنك إذا نظرت في كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة وبناه عليه ، وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه[2] ، فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ[3] والتربيع الأعظم ، وإذا نظرت في كتابنا وجدته نسيج وحده يتيماً في نظمه[4] »

وكذلك ما ندد به البشاري المقدسي ، حين قال :

« ... وأما الجاحظ وابن خرداذبة ، فإن كتابيهما (في المسالك والممالك) مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة[5] ... »

ومع ذلك ، وجدنا المقدسي ، ينقل غير مرة من كتاب ابن خرداذبة[6] .

ولم يكن المقدسي الوحيد بين الكتبة الأقدمين الذين عرفوا كتاب المسالك والممالك ونقلوا عنه نقولاً مختلفة ، بل هناك جماعة فعلوا فعله ، نذكر منهم : ابن رسته[7] ، وابن الفقيه الهمذاني[8] ، والمسعودي[9] ، وأبا الريحان البيروني[10] ، وياقوتاً الحموي[11] ، والشريف الإدريسي[12] ، والمقريزي[13] ، والقلقشندي[14] .

أما ابن خرداذبة نفسه ، فقد وجدناه ينقل أحاديث عن بعض معاصريه من ذلك قوله (المسالك والممالك ص ٤٨) : وخبرني الفضل ابن مروان ، والفضل هذا رجل من أهل البردان بالعراق استكتبه المعتصم وبلغ مقاماً رفيعاً في الدولة ، ثم تقلبت به الأحوال بين صعود وهبوط ، فذكر الطبري[15] أن المعتصم غضب عليه سنة ٢٢٠ وحبسه ، ثم ذكر[16] أن المتوكل عزله سنة ٢٣٤ عن ديوان الخراج ، وحكى في مكان آخر[17] أن المستعين عزله سنة ٢٤٩ هـ عن ديوان الخراج

ومما أشار إليه ابن خرداذبة في قوله هذه العبارة ص ١٠٦ : فحدثني محمد بن موسى ، وعبارته ص ١١٤ ، وحدثني أبو بكر بن عمر القرشي وعبد الله بن أبي طالب القرشي من كورة تونس بالمغرب قالا . وقوله ص ١٦٢ — ١٧٠ فحدثني سلام الترجمان ، وقوله ص ١٨٠ — ١٨١ وحدث أبو الفضل رائض بن الحارث بن أسد ، وقد ذكر الطبري أباه الحارث بن أسد في غير موضع من تاريخه[18] وقد يعمد ابن خرداذبة أحياناً إلى إغفال من ينقل عنهم والاكتفاء بالقول ص ١٧٨ : وحدثني بعض من أثق به ، أو ص ١٨١ وحدثني محدث أنه ...

---

(١) كتاب صورة الأرض « ص ٣٢٩ طبعة كرمرز »

(٢) هو كتاب البلدان . وقد طبع مختصره

(٣) كتاب البلدان للجاحظ ، من المفقودات فيما يظن . وقد نقل ابن خرداذبة عنه مرة واحدة (أنظر المسالك والممالك ، ص ١٧٠)

(٤) أحسن التقاسيم (٢٤١)

(٥) أحسن التقاسيم (ص ٥٠٤) . وفي كشف الظنون (٥ : ٥١٠ — ٥١١ طبعة فلوجل) رأى كأنه منقول من البشاري ويلاحظ أن اسم « الجاحظ » قد تحرف في الكشف إلى « الحافظ » فليصحح .

(٦) أنظر أحسن التقاسيم ، في الصفحات ٥٧ و ١٠٥ و ١٨٩ و ٢٢٢ و ٣٦٢

(٧) الأعلاق النفيسة (ص ١٤٩)

(٨) مختصر كتاب البلدان (ص ٢٠٣)

(٩) مروج الذهب (٢ : ٣٢٦ طبعة باريس)

(١٠) الآثار الباقية عن القرون الخالية (ص ٤١)

(١١) معجم البلدان (٤ : ٩٥ و ٦٠٢ طبعة وستنفلد

(١٢) مختصر نزهة المشتاق طبعة رومة ، ص ٧٠ و ٣١٥) ، ومقدمة ابن خلدون (طبعة باريس ١ : ٩٣) في الكلام على كتاب نزهة المشتاق للادريسي .

(١٣) الخطط للمقريزي (مطبعة النيل ١ : ٢١٧ و ٢٣٦ و ٢٦٢ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٣٤٤ و ٣٦٦ و ٣٧١)

(١٤) صبح الأعشى (٤ : ٣١٥ و ٤٠٢ — ٤٠٥) .

(١٥) تاريخ الطبري (السلسلة الثالثة ، ص ١١٨١ — ١١٨٦)

(١٦) تاريخ الطبري (السلسلة الثالثة ، ص ١٣٢٩)

(١٧) تاريخ الطبري (السلسلة الثالثة ، ص ١٥١٣)

(١٨) تاريخ الطبري (السلسلة الثالثة ص ١٦٠٥ و ١٦١٩ و ١٦٥٧)

والآن بعد أن أطلنا الكلام على كتاب المسالك والممالك ، نعود إلى بقية مؤلفات ابن خرداذبة

٤ — كتاب الطبيخ

٥ — كتاب اللهو والملاهي في خزانة الأستاذ حبيب زيات[1] مخطوط عنوانه « مختار من كتاب اللهو والملاهي لابن خرداذبة » ولا ندري ما إذا كان هذا « المختار » للمؤلف نفسه ، أم أنه لشخص آخر . وليت صاحب المخطوط ، وهو الباحث الكبير المعروف بسعة اطلاعه وبُعد تحقيقه ، يعنى بنشره ، فيضيف بذلك مأثرة جديدة إلى مآثره العلمية الجمة

٦ — كتاب الشراب

٧ — كتاب الأنواء

٨ — كتاب الندماء والجلساء

والغريب أنّ هذه المصنّفات الثمانية باستثناء المسالك والممالك لم تقف ألبتة على ذكر لها ، في ما سوى الفهرست لابن النديم . وهذا كشف الظنون للحاج خليفة ، وهو من أوسع المراجع التي تَهيأنا على الكتب ، لم يتطرق إلى تسمية شيء منها ، اللهم إلا المسالك والممالك ، وما قاله فيه لا يتعدى كونه رأياً منقولاً عمن سبقه ، كما أسلفنا القول في ذلك في موطن آخر من بحثنا

هذا ونحن على يقين من أن لابن خرداذبة تصانيف أخرى ، الثمانية المشار إليها أعلاه . فقد أورد المسعودي[2] مقالة ابن خرداذبة في « الموسيقى » ، وهي التي قالها بحضرة الخليفة المعتمد

فهل تكون هذه « المقالة الموسيقية » فصلاً أو قطعة من أحد الكتب التي ألمعنا إليها ، أم أنها شيء قائم بذاته فات ابن النديم ذكره ، فكان نصيبه الخلود على يدي المسعودي ؟ ؟

وقد أثنى المسعودي ثناء عاطراً على « تاريخ » ابن خرداذبة الذي لا ذِكْرَ له بين الكتب المنوّه بها آنفاً . وهذا قوله بالحرف الواحد[1] :

« . . . وعُبَيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ؛ فإنه كان إماماً في التأليف ، متبرّعاً في ملاحة التصنيف ، اتّبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطئ على عقبه وقفى أثره . وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ ؛ فإنه أجمعُ هذه الكتب جداً ، وأبرعها نظاماً ، وأكثرها علماً ، وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسِيَرها من الأعاجم وغيرها ... »

وهي لنعم الشهادة يُصدرها مؤرّخ جليل ثَبْت كالمسعودي !

وفي مكان آخر لمّح المسعودي إلى « تاريخ ابن خرداذبه » . فقال بعد كلام نقلناه في مطاوي بحثنا ما هذا نصه[2] :

« على أنه — أي كتاب المسالك والممالك — أحسن كتاب في هذا المعنى . وكذلك كتابه في التاريخ وما كان من ذكر الأمم الماضية قبل مجيء الإسلام ... »

(البقية في العدد القادم) كوركيس عواد

(١) أنظر كتابه « البابات النصرانية في الاسلام » (ص ١٢٨) وقد نقل من هذا المخطوط نبذة تجدها في الصفحة ٩٠ منه

(٢) مروج الذهب (طبعة باريس ٨ : ٨٨ — ١٠٢)

(١) مروج الذهب (طبعة باريس ١ : ١٣) . وقد اختصر قوله السخاوي في الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ١٥٥ — ١٥٦) ، والحاج خليفة في كشف الظنون (٢ : ١٠١٠ — ١٠٢ طبعة أوربة)

(٢) مروج الذهب (طبعة باريس ٢ : ٢٢)

الافصـــاح

المعجم العربي الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة ، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً ، يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدي
رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية